6. نظرية العقل

Juan Moisés de la Serna

يعد الذكاء العاطفي مجموعة من الأفكار التي تم الحصول عليها عبر التجارب البحثية، ومراقبة وتمييز عواطف الآخرين باعتبارها خاصة بهم استجابة لأحداث الحياة، ومن ثم يتطلب مستوى معين من تطوير الشخصية الذي يمكن أن يسمح لها بالتكيف المستمر والتطور العاطفي أو بالأحرى ما يمكن أن نطلق عليه التطور الملائم لنظرية العقل. وتتلخص هذه النظرية في كونها تلك الظاهرة التي يمكن للشخص من خلالها أن يفهم أن شخصًا آخر لديه نفس ذوقه الخاص وطريقة تفكيره، مما يتيح له إمكانية التنبؤ بسلوكه وربما خداعه لمصلحته الشخصية؛ وهي ميزة كانت تعد حصرية للجنس البشري دون غيره، حتى تم التحقق من وجودها أيضا في أنواع الرئيسيات الأكثر تطوراً.

في الوقت الراهن، ومع تقدم المعرفة في مجالات البيولوجيا وعلم الحيوان وعلى الرغم من ملاحظة العديد من الأمثلة الخاصة بالسلوك "الخادع" للتعويض عن الاحتياجات الأكثر تنوعًا في عالم الحيوان، فإن الدوائر العلمية لا توافق جميعها على وجود نظرية العقل. حيث يرى البعض أن تلك النظرية تكمن في قدرة الفرد على خداع نظرية أخرى، يُفترض أنها تنطوي أيضًا على القدرة على إدراك ما إذا كان أحدهم قد تم خداعه، باعتباره عاملاً ذا أهمية اجتماعية كبيرة تسمح بتحديد المعتقدات الخاطئة والتلاعب. لذلك، فإن الطفل الذي يتمتع بفهم واضح لنفسه ولغيره، لديه فرصة أفضل للتعرف بسهولة على حالات الخداع. وبفضل التواصل غير اللفظي، المصنوع من التعبيرات والإيماءات، يمكننا التحقق من سلوك الآخرين والتصرف وفقًا لذلك.

تتطور هذه القدرة ما بين ثلاث وست سنوات وتتقن طوال الحياة، مما يسمح لنا بفهم

ما هي الآليات العقلية الأخرى.وفي السنوات السابقة، لم يكن الطفل قادرًا على تحديد الاختلافات بين باطنه الداخلي والعوامل الخارجية الاجتماعية التي يعيش فيها، معتقدًا أن العالم وفكر الآخرين يعكسان عالمه الخاص؛ وهي السمة الغالبة للأطفال المصابين بالتوحد ويعانون من صعوبة خاصة في فهم ذاتية الآخرين. ومع تقدم العمر، يكون الفرد قادرًا على التعرف على مختلف الشخصيات أو تلك التي تشبه شخصيته من أجل الخداع أو التعاون.

هل يمكن تعليم الأطفال التعرف على المعتقدات الخاطئة والأساليب الخداعية؟
حاولت دراسة أجرتها جامعة جيرونا (إسبانيا) الإجابة على هذا السؤال ونشر النتائج في المجلة العلمية لبحوث تنمية الطفل، حيث شارك فيها ثمانية وسبعون طفلاً تتراوح أعمارهم بين واحد وأربعين شهرا وسبعة وأربعين شهرا، منهم واحد وأربعون فتاة. وخضع الأطفال لاختيار قياسي للمفردات يسمى اختبار المفردات Peabody Picture وقبل ذلك الاختبار وبعده، تم استخدام تحليل إضافي بتطبيق مهمة المحتوى غير المتوقع الذي سمح لنا بفهم ما إذا كان بإمكانهم تحديد المعتقدات الخاطئة أم لا.
أكدت النتائج تقدم أولئك الذين حصلوا على درجة أعلى في الاختبار الذي أجري قبل اختبار المفردات، وعلى العكس من ذلك، أولئك الذين حصلوا على علامات أقل لم يظهروا تقدمًا في التعلم. ويجب النظر لحقيقة أنه، بجانب عدم الإشارة للاختلافات في التعلم فيما يتعلق بجنس الأطفال والعدد المنخفض الذي تم أخذه في الاعتبار، فإن هذه الدراسة لا تنطبق على دعم نمو الأطفال المصابين بالتوحد ولا تقدم فرصة للاندماج التي يحتاجون لها بشدة وبالتالي، فإن ما سبق يؤكد الحاجة لتدريب شخصي للذكاء العاطفي، وتكييفه مع الاحتياجات الفردية للأشخاص.

إن تحديد مستوى التبعية والتأثير بين الذكاء العاطفي ونظرية العقل تجعل من الممكن فهم ما هو ضروري لتركيز الجهود لتكون قادرة على تقديم فرصة كافية لتحسين حالة الأطفال المصابين بالتوحد.

وتتطور القدرة على الكذب في سن السادسة إلى الثامنة، وبالتالي ، فإن أي شيء يمكن اعتباره فعل خداعي متعمد في السنوات السابقة، لا يمكن أن يكون نتيجة للتلاعب الواعي؛ من هذا السن وما بعده، يبدأ الطفل في إدراك شخصيته الفردية ويلاحظ الاختلافات مع الآخرين، وبالتالي وضع شكل "بديل" للواقع من أجل حثهم على التفكير فيما يريدون.

يجب أيضًا اعتبار أن الأطفال يروون نوعين من الأكاذيب: كذب غير اجتماعي، يهدف لتجنب العقوبة والتلاعب بقناعات الآخرين، ويمكن ملاحظته بالفعل ويبدأ من السنة الثانية من العمر ويمكن التعرف عليه بسهولة ويكون لفترة قصيرة؛ والثاني يعتبر نوعا من التوافق مع المجتمع، حيث يختلقه لتلبية احتياجات شخص آخر، على سبيل المثال، الإشارة إلى أن الطبق المحروق الذي أعدته الأم جيدا!

وسعت الدراسة التي أجرتها الجامعة الكندية ماكجيل وجامعة نيويورك الأمريكية لفهم ما هو الحد للذي بعده من الضروري أن تقلق بشأن الأكاذيب التي يرويها الأطفال، ونُشرت النتائج في المجلة العلمية لمجلة علم نفس الطفل التجريبي.

شارك في الدراسة تسعة وسبعون طفلًا تتراوح أعمارهم بين ستة واثني عشر، ستة وثلاثون منهم من الفتيات، وتم اختبارهم تحت عنوان "نموذج الهدية المخيبة للآمال" يقترحون مهمة بعد ذلك يتلقون هدية مخيبة للآمال وربما الكذب حول حقيقة أنها كانت موضع تقدير.

كما شاركوا في اختبار ستروب لتقييم مستوى المرونة الذهنية والتنموية لنظرية العقل، لاختبار Digit Span لقياس مستوى ذاكرة العمل، وأخيراً مقياس الذكاء القياسي Wechsler Intelligence Scale for Children-4th Edicio

على الرغم من عدم العثور على فروق ذات دلالة إحصائية بين الأولاد والبنات والتحقق من أن 59.5 ٪ من الحالات أكدت اختلاق أكاذيب مؤيدة للمجتمع بين أولئك الذين يتمتعون بمستوى عال من نظرية العقل والذاكرة العاملة، فإن الدراسة الخاصة بالموضوع لم تأخذ في الاعتبار أسباب هذه الاختلافات وإذا كان ذلك مناسبًا للعمر الذي تم أخذه بعين الاعتبار.

علاوة على ذلك، يجب النظر في مدى تماســك الظروف التي وضــع فيها الأطفال، وأكدت النتائج أن الأكاذيب للأغراض الاجتماعية قام بها أولئك الذين أظهروا تطورًا أكبر في القدرات المعرفية، محولة هكذا المفهوم السلبي للخداع.

أخيرًا، لم تقارن الدراسة المذكورة أعلاه نوعي الكذب لفهم الأسباب التي تجعل الفرد يســتخدم الكذب المعادي للمجتمع أو المؤيد للمجتمع وفي أي عمر تنشــأ الحاجة لاستخدامه.

وكانت دراســة حديثة متعددة الثقافات أجرتها جامعة كامبريدج (إنجلترا) وجامعة كيوتو (اليابان) وجامعة بافيا (إيطاليا)، ونشــرت النتائج في المجلة العلمية "تنمية الطفل" قد شككت في عالمية مفهوم أن نظرية العقل تعتبر عاملاً أساسياً في التطور الصــحيح للذكاء العاطفي عند الأطفال، والتحقق من وجود ظواهر نفســية ثابتة، إذا كان من الممكن التأثير عليهم من السياق الثقافي.

لقد اســتنتجت الدراســة أن نظرية العقل تتطور في المراحل المبكرة للنمو بفضــل القدرات والتجارب المعرفية الشخصية ، بغض النظر عن السياق الثقافي الذي، في نهاية المطاف، يمكن أن يؤثر بشكل حصري على سن ظهور هذه القدرات.

في الواقع، شــارك في الدراســة مائتان وثمانية وســتون طالبًا تتراوح أعمارهم بين خمس وســت ســنوات يحملون الجنســيات الإنجليزية والإيطالية واليابانية من أجل مقارنة النتائج بالإشارة للسياق الثقافي. وأفادت البيانات التي تم الحصول عليها عن نظرية العقل، والتي تم تقييمها من خلال أربعة اختبارات مســتقلة، أن الأطفال الإنجليز حصلوا على أفضل نتيجة، مما يشير للتبرير، والنهج الثقافي المختلف الذي ينمو فيه الطلاب ويفكر في حقيقة أن الأطفال الغربيين لديهم اتصــالاتهم الأولى مع المؤسسات التعليمية قبل الشرقيين.

ويبرز ما ســبق مســتويات مختلفة من نظرية العقل وفقًا للســياق الثقافي، وكما يؤكد المؤلفون أنفسهم، أهمية معرفة آليات نظرية العقل نظرًا لارتباطها بالنتائج الأكاديمية المســتقبلية للطلاب، كما أنه يقترح فهمًا للأســباب التي تجعل بعض الطلاب أقل استيعابا من غيرهم ويقترح نهجًا تعليميًا جديدًا بهدف الانتباه للآليات الداخلية للبالغين

في المستقبل. ووفقًا لنظرية (التعقيد المعرفي والسيطرة)، فإن الأطفال الذين يعانون من فرط الحركة لديهم تطور أقل في نظرية العقل ومرونة معرفية أقل.

ويشير فرط النشاط لعدم الراحة الذهنية أو الحركية التي تمنع التركيز، مما يجبر الطفل على الحركة المستمرة والمضاعفات المترتبة على المعاشرة الاجتماعية، وقبل كل شيء في المدرسة ، حيث تثبت عدم قدرته على التقاط المعلومات بشكل صحيح المنقولة له من اساتذته، ويعاني من تأخر شديد في تنفيذ البرنامج المدرسي.

وفي بعض الحالات، يتم تشخيص الخاصية المذكورة أعلاه على أنها T.D.A.H. (اختصارا باللغة الإسبانية لاضطراب فرط النشاط المصحوب بنقص الانتباه).

وتوضح إحدى النظريات استخدام الأطفال الذين يفتقرون لأي نوع من الاضطرابات التنموية سلسلة من المهارات، مثل المرونة المعرفية، التي تتيح لهم دمج العلاقات المعقدة بين العناصر المنفصلة على ما يبدو، وهي حالة تتطلب درجة عالية من مستوى الاهتمام والتعلم.

وتعد المرونة المعرفية عاملا أساسيا لتطوير نظرية العقل، لأنها تتيح الوعي بالاختلافات بين شخصياته وشخصيات الآخرين، ومن أجل التنبؤ أخيرًا بالسلوك وفهم ما إذا كان ذلك مناسبًا لجميع الموضوعات خارج ذواتهم، والاستفادة من تطوير ضبط النفس.

لا يؤكد ما سبق التنبؤ الخاص بنظرية التعقيد المعرفي التي تؤكد أن جميع أولئك الذين لديهم قدرات إدراكية عالية، يستطيعون في وقت لاحق تطوير مفهوم أفضل لنظرية العقل؛ وعلى العكس من ذلك، فإن الأطفال الذين يعانون من نقص الانتباه وفرط النشاط، ليس لديهم خصائص المرونة العقلية اللازمة، ويطورون نظرية العقل بشكل أقل.

أكدت النتائج التي توصلت لها دراسة أجرتها جامعة أستراليا الغربية ونشرت في المجلة العلمية لبحوث تنمية الطفل ما سبق وكان قد شارك فيها70 طالبا في المرحلة الابتدائية، حيث تم تقييم المرونة المعرفية ونظرية العقل وفرط النشاط .وأكدت النتائج نظرية التعقيد المعرفي حيث تم التحقق من أن الأطفال الذين يتمتعون

بمستوى أعلى من المرونة المعرفية لديهم مستوى أعلى من نظرية العقل وانخفاض النشاط المفرط.

واقترحت الدراسة أخيرًا إمكانية تعديل السلوك المفرط والمضايقات الناجمة عنه، وبتدخل غير مباشر في المرونة المعرفية أو في نظرية العقل ، لجعل حياة الأطفال المصابين أقل تعقيدًا من مثل هذا الاضطراب الذي يسمح له بأداء فكري أفضل. ومن أجل تأكيد فعالية نظرية التعقيد المعرفي. سيكون من المناسب إكمال النتائج الموصوفة بالتدخلات التعليمية التي تهدف للتحكم غير المباشر وتعديل السلوك المفرط.

ومن الضروري التدخل في الذكاء العاطفي في أقرب وقت ممكن، لا سيما في سن المدرسة حيث تستمر ظواهر الإساءة والتسلط بشكل خاص وتحمل حياة الطالب المعتدى عليه بمشاعر سلبية ومتناقضة.

هل من الممكن تقليل آثار الإساءة في المدرسة من خلال تدخل مثالي في نظرية العقل لدى الطلاب؟

تخيل الاستيقاظ في الصباح ومعرفة أنه يجب عليك الذهاب إلى مكان يهينك فيه الآخرون ويضربونك، هل ستدخله؟ ماذا ستكون حالتك العاطفية في هذه الحالة؟

تؤثر ظاهرة التنمر على حياة الأطفال الصغار بشكل متزايد ولها تداعيات خطيرة على حياة البالغين وعلى الرغم من الأضرار النفسية الجسيمة الواضحة الناجمة عنها، لا يوجد حل سليم.

ولا تعد مجرد أورام دموية أو كدمات جسدية، بل هي إصابات روحية تقوض احترام الذات للفرد وتمنع التطور العاطفي السليم وتضر بالعلاقات الاجتماعية والحياة المستقبلية، وتهيئ الظروف أن يؤدي التوتر الشديد لاضطرابات نفسية جسدية أو حتى الانتحار. وعلى الرغم من حقيقة أن المؤسسات التعليمية حاولت وضع نوع من العلاج من خلال اقتراح لقاءات إعلامية مع أسر الأطفال المعتدى عليهم أو أسر الأطفال المعتدى عليهم، في محاولة للتدخل مباشرة في فعل الإساءة من أجل تخفيف آثارها، لم يتم التوصل إلى حل نهائي يزيل الظاهرة من جذورها.

وحاولت دراســـة أجرتها جامعة ميلانو- بيكوكا الإيطالية وجامعة مانيتوبا الكندية معالجة المشــكلة من منظور مختلف ونشـــر النتائج في المجلة العلمية "مجلة الطفل التجريبي" علم النفس.

يؤكد أصـحاب الدراسـة أنه من الضـروري منع الإسـاءة، لأن الفعل المكتمل سـيكون عديم الفائدة.

وحضر الدراسة مائة وعشرة تلاميذ تتراوح أعمارهم بين 6 و 7 سنوات، نصفهم من الفتيات.

وتم تقسـيم الأطفال في مجموعتين عشـوائيتين، وكان عليهم أن يقرءوا خلال شـهرين سـلسـلة من النصـوص التي تتناول المواقف العاطفية؛ ثم وجب على مجموعة واحدة التعليق شفهياً على ما كان محفزًا عاطفياً، بينما وجب على المجموعة الأخرى التعبير عن نفس المفهوم من خلال الرسـومات. أظهرت النتائج أن أطفال المجموعة الأولى، زادوا من الفهم العاطفي من خلال التعرف على المشـــاعر التي تحفزها القصـــص، وحسّـنوا نظرية العقل والتعاطف مع الحفاظ على التحسـينات التي تم الحصـول عليها لـــمـــدة ســـتـــة أشـــهـــر تـــقـــريـــبًـــا.

وعلى الرغم من أنه لم يتم تقييم العواقب المحتملة والمســتقبلية لســوء المعاملة في المدرسة، فإن المؤلفين اعتمدوا على حقيقة أن الفهم التعاطفى لعواطف الآخرين يمكن أن يمنع ظهور الحاجة لإخضــاع قرينه للإســاءة، مما يؤكد الحاجة لتدخل وقائي من سن ما قبل المدرسة ينطبق على جميع المؤسسات التعليمية.